Université d'Oran 2 Mohamed Ben Ahmed
Faculté des Sciences économiques, Commerciales et Sciences de Gestion
2022 – 2021

- **Niveau : L 1** **Semestre : S1**
- **Domaine : SEGC**
- **Matière : Introduction à la sociologie 1**
- **Enseignant : BENCHAREF HOUCINE**
- **Séquence : C09 / 15-09**
- **Code de la ressource : L1_S1_SEGC_D112_C09/15**

مقياس: مدخل الى علم الاجتماع

السنة الأولى علوم اقتصادية

السداسي الأول

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

منسقة المقياس الأستاذة: د. براس دليلة

(2021 / 2022)

الأستاذ: توباش شكيب محاضر للمجموعات: 1+2+3+4

الأستاذ: بن شارف حسين محاضر للمجموعات: 5+6+7+8+9+10

المحاضرة الثامنة: النظرية البنائية الوظيفية

المراجع

- الغزوي، فهمي وآخرون، 2006، **المدخل إلى علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع،عمان: الأردن.(مرجع رئيسي)
- بدوي، السيد مجمد، 1981، مبادئ علم الاجتماع، ط2، دار المعارف، الإسكندرية.
- بركات ،حليم، 2000، **المجتمع العربي في القرن العشرين** ، ط، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جدنز، انتوني، 2005، **علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)**، ط4، ترجمة فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- خمش، مجد الدين، 1998، **علم الاجتماع**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.
- عثمان، إبراهيم، 1999، **مقدمة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع، عمان: الأردن.
- الدقس، محمد، 1996، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.

الإتجاهات البنائية الوظيفية

تشغل الإتجاهات البنائية الوظيفية حيزا كبيرا من الفكر السوسيولوجي الحديث والمعاصر. وتتجاوز جذورها، وكذلك الجهود التي أسهمت فيها بطريق مباشر أو غير مباشر، أكثر من اسم من مشاهير علم الاجتماع الغربي، وأكثر من بقعة جغرافية في أوروبا وأمريكا، حتى إنه يمكن القول تقريبا بأنها تكاد تكون الإطار التنظيري الأساسي للنظام الاجتماعي الرأسمالي المعاصر. لقد كتب حولها شرحا وتوضيحا وتنقيحا، ونقدا وردا لسهام النقد عشرات الكتب والمقالات، ومع كل ما قدم لها من نقد من كل صوب، وحتى من بعض الأنصار ومن الخصوم، فهناك من يتمسك بها، لا داخل المجتمعات الأنجلو أمريكية فقط، وإنما أيضا من داخل الدول النامية، ومجتمعاتنا العربية. وهناك من الباحثين العرب من يتعاطف معها، بوعي أو بدونه، ويقاتلون في الحفاظ على توازنها مقدار مسعاها هي في الحفاظ على توازن المجتمع الرأسمالي واستمراره، ولو بإغلاق الأبصار والآذان عما إذا كان هذا التوازن واقعا أو خيالا، مفقودا أو موجودا، ولعل مثل هذا الوضع المشكل من بعض وجهات النظر يفرض على أي عمل حول اتجاهات نظرية علم الاجتماع ضرورة الوقوف عليها، ومحاولة فهمها وتحليلها.

التعريف بالاتجاهات البنائية الوظيفية ونشأتها:

لا يشكل الفكر السوسيولوجي الوظيفي خطا مطردا ناميا، نحو بناء عمل نظري يمكن وسمه بالعملية والإنسانية، لأنه-كما سوف نوضح بعد قليل-يحوي اتجاهات فرعية، ثم تفريع التفريعات التي تتلاقى حينا وتتناءى أحيانا. وقبل أن نسير مع بعض المسائل التفصيلية يمكن القول بأن الاتجاهات الوظيفية في جملتها تعبر عن نموذج دراسي تم اشتقاقه عند استخدام المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية، وهو يركز على دوافع الفاعل-الإنسان-في الموقف. وهو يعد نموذجا ذاتيا إذ يفهم السلوك في نطاق معناه الذاتي عند الفاعل. فالأفراد من وجهة نظر البنائيين الوظيفيين يمارسون أنواعا شتى من الأفعال، وأثناء أدائهم يتبادلون العلاقات فيما بينهم. وإذا رأى أنه من الضروري المحافظة على هذه العلاقات الإجتماعية فلا بد لهم من وجود أنواع أخرى من النشاطات [3] الجزئية التي تكون هادفة إلى الحفاظ على الكل، أي بناء المجتمع الذي توجد فيه ومن خلاله.

وهذا هو المعنى التقريبي المتفق عليه للوظيفية، حيث هي الدور الذي يؤديه الجزء في الحياة الاجتماعية، وفي الكل الاجتماعي الذي هو البناء والذي يتألف من أجزاء أو انساق اجتماعية تتوافق فيما بينها.

وبإيجاز شديد ترجع تسمية هذه الاتجاهات إلى استخدامها لمفهومي البناء Structure والوظيفة Function في فهم المجتمع وتحليله، من خلال مقارنته وتشبيهه بالكائن العضوي أو الجسم الحي. وقبل الإشارة إلى بعض الجذور التاريخية لها يجدر بنا الوقوف على هذين المفهومين الأساسيين اللذين يعدان العمود الفقري للاتجاه.

أ-يقصد بالبناء الاجتماعي مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية، فثمة مجموعة أجزاء مرتبة متسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي، وتتحد بالأشخاص والزمر والجماعات وما ينتج عنها من علاقات، وفقا لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل، وهو البناء الإجتماعي [5]. هذا هو تقريبا كل ما يمكن استنتاجه حول هذا المفهوم الذي يجوز أن نسجل بشأنه الملاحظتين التاليتين: أشار ردفيلد R.Redfield إلى الأولى حين ذكر لنا أن من استخدموا مفهوم البناء لم يستخدموا معنى واحدا، و يبدو انهم يستخدمون عدة أفكار أو تصورات مختلفة بشأنه. وأما الملاحظة الثانية فتتمثل في أنه ومنذ محاضرة راد كليف براون R.Brown، أحد رواد هذه الاتجاهات، التي ألقاها عام 1940، وعنوانها «في البناء الاجتماعي» منذ ذلك الحين لم يطرأ على المفهوم أي تغيير أو أية تطويرات جوهرية اللهم بعض الاشتقاقات، كالبناء التحليلي والبناء الواقعي وما إلى ذلك من تفريعات. ويدلل على هذا إن تعريف «تالكوت بارسونز» للبناء يذهب إلى أنه مجموعة من العلاقات الثابتة نسبيا بين الأفراد [6].

ب-و يقصد بالوظيفة الإجتماعية Social Function ذلك الدور الذي يسهم به الجزء في الكل. هذا هو القدر المتفق عليه تقريبا بين أنصار الإتجاه، وفي غير ذلك يوجد قدر من عدم الوضوح، فباريتو F.Pareto أحد رواد هذا الاتجاه يستخدم الوظيفة بمعنى المنفعة ويستخدم المنفعة هنا مرتين: مرة على أنها إضافة أو إسهام تقوم به ظاهرة بعينها لتأكيد هدف بعينه وإنجازه، ومرة بوصفها إشباعا حقيقيا أو مفترضا بقصد توكيد الحالة الراهنة للنسق الإجتماعي والمحافظة عليه (7).

ج-وأما التفريعات الأخرى التي قدر للباحثين في هذه الاتجاهات أن يوافونا بها، فهي كثيرة، لكن أهمها: الشروط ألبنائية المسبقة Structural Prerequisties الشروط الوظيفية المسبقة Functional Prerequisites الشروط البنائية S.Requisites والشروط الوظيفية F.requisites والوظيفة الواضحة manifest والكامنة Latent، والمعوقة Dysfunction والميسرة Eufunction. ويقصد بالشروط البنائية، حالات بنائية، سابقة في وجودها لوجود أية وحدة اجتماعية. آما الضرورات الوظيفية فيعنون بها جملة الوظائف التي يتوقف على وجودها المسبق ظهور أية وحدة اجتماعية أخرى تؤدي وظيفة. أما المتطلبات البنائية في ظروف مساعدة في الحفاظ على الوحدات الاجتماعية، وهي تتشابه مع المتطلبات الوظيفية التي تتمثل في وجود أفعال أساسية، ووظائف مسبقة لأداء وحدات أخرى لوظائفها ومهامها. وأما الوظيفة الواضحة فهي تلك التي يقصدها. المشاركون في النسق من وراء تصرفاتهم وأفعالهم، أما الكامنة فهي التي تأتي بنتائج غير مقصودة أو معروفة من قبل المشاركين، والوظيفة المعوقة، أو الميسرة، هي تلك الوظائف التي تحقق نتائج سلبية أو إيجابية في المجتمع (8).

وأما عن بعض الأبعاد التاريخية لنشأة هذه الاتجاهات، و بقصد إلقاء مزيد من الضوء على تعريفها فيمكن صوغ المسلمة الأساسية الآتية:

«كان العلم الطبيعي خاصة علم الحياة أنموذجا ظل البنائيون الوظيفيون يحاكونه وينسجون على منواله بدرجات متفاوتة، وظلت هذه المحاكاة ملازمة لهم، ولإتجاهاتهم، نشأة، وتطورا، وواقعا معاصرا، الأمر الذي وسم جهودهم بالتجديد حينا، وبالتقليد حينا آخر، ولم يعد ما قدموه الترتيب العام لأفكار عامة وردت في قضايا كتابات الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع».

هذه هي المسلمة الأساسية التي يمكن اعتبارها خطا أساسيا أو محورا دارت من حوله الدعاوي والافتراضات النظرية التي أتى بها الرواد المؤسسون للاتجاه البنائي الوظيفي، وهو أمر تفصح عنه بجلاء الخطوات المختلفة التي سار فيها. فعلم الحياة منذ منتصف القرن الماضي، أشار بوضوح إلى أن بناء أي كائن عضوي عبارة عن ترتيب أو تنظيم ثابت نسبيا من العلاقات القائمة بين الخلايا المختلفة لهذا الكائن. وأشار أيضا إلى مصاحبات أو نتائج الأعضاء المختلفة للكائن العضوي في حياة هذا الكائن واعتبار هذه المصاحبات أو تلك النتائج بمثابة وظيفة لكل عضو من الأعضاء [9].

ثم جاء وليم روبرتسون سميث W.R.Smith ليتلقف هذه الفكرة، ولتبدأ أول إشارات بزوغ الاتجاه البنائي الوظيفي، و يتضح هذا من كتاب «سميث» حول الزواج والقرابة Kinship and marriage سنة 1885 وأيضا في محاضراته حول الدين في المجتمع [10] وإذا كانت الفكرة السابقة لم تكن واضحة تماما في آراء «سميث» فقد زادها وضوحا هربرت سبنسر 1820 - 1903 (H.Spencer)، عالم الاجتماع البريطاني الذي أتى تصوره لعلم الاجتماع حافلا بالاصطلاحات الوظيفية، ولم يكتف «سبنسر» باستخدام المماثلة البيولوجية Biological Analogy بالمعنى الحرفي للكلمة وإنما استخدم أسس ومفهومات علم الحياة وطبقها على المجتمع الإنساني تطبيقا شبه كامل. ولقد تطورت فكرة المماثلة البيولوجية إلى آخر مدى على يد المدرسة العضوية الاجتماعية التي من بين أعضائها البرت شاف A.Schaffe الذي أثرت أفكاره في اثنين على الأقل من رواد علم الإجتماع الأمريكي هما: البيون سمول A.Small الذي ادخل أفكار «شاف» إلى علم الاجتماع الأمريكي في أول كتاب أمريكي في هذا العلم سنة 1894 .أقصد كتاب «سمول» مقدمة لدراسة المجتمع Introduction to the Study of Society. وأما الرائد الثاني الذي تأثر «بشاف» فهو تشارلس كولي C.Cooley الذي كان حريصا على القول بأنه انفق معظم وقته وجهده في تفسير وتحليل عمل «شاف» وإذا كان كولي لم يستخدم التصور البنائي الوظيفي استخداما مباشرا، فإنه يمكن القول بأن كتابه، العملية الاجتماعية Process. S سنة 1918 يحوي تفسيرا عضويا للمجتمع

وهناك خيط آخر استمده وليم جرهام سمنر W.G.Summner من «سبنسر» وطبقه على دراسة الثقافة، ليأتي عمله وكأنه نزعة سبنسرية في ثوب أمريكي ويتبين جوهر فكر«سبنسر» من خلال نظريته في الطرائق الشعبية Folkways التي اعتبرها أنماطا اجتماعية تنشأ من خلال المحاولة والخطأ، وتقوم بوظيفة أساسية في الصراع من اجل البقاء. ولقد طور كيلر Keler أفكار «سمنر» بعد متابعته لكتابات «مالينوفسكي»، ثم اقترح نظرية وظيفية فى الثقافة، باعتبار أن الوظيفة الأساسية للثقافة تتمثل فى الوفاء بالحاجات الأساسية لحامليها، وتنشأ أيضا كما أشار «سمنسر» نتيجة لعملية المحاولة والخطأ [12].

على أن أول صياغة متسقة حول منطق الاتجاه البنائي الوظيفي في علم الاجتماع، هي تلك التي قدمها إيميل دوركايم [13] من خلال كتابيه «قواعد المنهج» و«تقسيم العمل الاجتماعي» حيث يحوي الكتاب الأول تمييزا بين كل من التفسير العلمي أو السببي وبين التفسير الوظيفي لظاهرات المجتمع، مع ملاحظة انه أكد الحاجة العلمية إلى كليهما. وأما الكتاب الثاني فقد خصص جزأه الأول لدراسة وظيفة «تقسيم العمل» وخصص الثاني لتوضيح أسباب وشروط «تقسيم العمل» فوظيفة تقسيم العمل تتمثل في انه أتساس للتضامن العضوي للمجتمعات المتقدمة المعقدة، الشديدة التباين. وأما أسبابه وشروطه فتتخلص في زيادة الكثافة الاجتماعية، التي تزيد بدورها من التباين الفردي الناجم عن عدم تكامل الشعور الجمعي المشترك [14].

ومع الحرب العالمية الأولى أصبحت الوظيفية معروفة على المسرح الأمريكي، سواء كان هذا مجازيا أو حرفيا، وبالرغم من جهد «البيون سمول» المشار إليه فيما سبق فإن ليوبولد فون فيزه L.V.Wiese عد مصدر للوظيفية، حين ظهرت أعماله بالألمانية في مقالات نشرت 1918 , 1924 وقدمها هوارد بيكر H.Becker إلى قراء الإنجليزية سنة 1932 [15]. ولقد تأثرت الوظيفية خلال عشرينات وثلاثينات القرن الراهن بجهود اثنين من الأنثروبولوجيين البريطانيين هما: «راد كليف براون» و«برونسلاف مالينوفسكي» فبراون تعلم في «كمبردج» واقتفى آثار «دوركايم» ومدرسته، واستخدم المماثلة البيولوجية، لكي يوضح وظيفة كل عنصر من عناصر البناء في المحافظة على البناء الكلي، وتطوره. وفي نفس الوقت اغفل أو تجاهل المصاحبات الوظيفية F.Consequences لبعض العناصر الخاصة المحددة، المفضية إلى تباين بعض مكونات بناءات معينة، أو بعبارة أخرى المكونات الفردية لها. وجدير بالذكر أن هذا التمييز الأخير هو الذي جعل «مالينوفسكي» يميز نموذجه الوظيفي عن الآخرين، و يشير إلى أن النزعة الدوركايمية في فكر «براون» هي التي جعلت الأخير يتجاهل تماما الفرد، ويتخلص من العنصر البيولوجي أو يبعده عن التحليل الوظيفي للجوانب الثقافية والاقتصادية

والتعليمية والعلمية والتشريعية.. الخ، وذلك لتوضيح ارتباطها بالحاجات البيولوجية للأفراد، وان كان هذا هو الخلاف بين هذين الأنثروبولوجيين، فإن عمليهما في البحث الأنثروبولوجي قدم توضيحات وإضافات أثرت الوظيفية، وجعلت بالمقدور النظر للثقافة كأنساق وظيفية مترابطة ومتساندة (16).

ولقد كان للفكر الإيطالي دور في هذا الاتجاه، من خلال أفكار باريتو 1848 -1923 (F.Pareto) الذي قدم نموذجا استقاه من الميكانيكا، وصور المجتمع من خلاله نسقا متوازنا يتألف من أجزاء أو مكونات بينها اعتماد متبادل.

ولقد أدى به هذا إلى السؤال عما يعترى ظاهرة معينة نتيجة اضطراب أي عنصر فيها، والإشارة إلى أن تغير هذا العنصر وارتباطه بغيره و واعتماده عليه، هو الذي يعمل على تحقيق التوازن في النسق. وإذا كان «باريتو» قد اهتم بالوظيفة، فإنه مع ذلك لم يستخدم اصطلاح الوظيفة، مفضلا عليه مفهوم المنفعة utility كما سبقت الإشارة.

يتضح مما سبق عرضه، صحة المسلمة السابقة، وتعلق الرواد الوظيفيين بعلم الحياة، ومن حاول منهم البعد عن هذا العلم انتقده الآخرون وخلعوا عليه بعض الصفات كما فعل «مالينوفسكي» في نقده «لراد كليف براون» الذي أشرنا إلى جانب منه فيما سبق. على أن العرض السابق يوضح أيضا أنه قبل جهود «براون» و «مالينوفسكي» كان تركيز الرواد على البناء الإجتماعي أقوى وأوضح من التركيز على الوظيفة، وصور البناء متغيرا مستقلا والوظيفة متغيرا تابعا. وأما بعد محاولات هذين الباحثين، وبحثهما لما في النسق الإجتماعي الثقافي من ترابطات، فقد أصبحت الوظيفة أداة رئيسية في البحث والتفسير، وصورت كما لو كانت متغيرا مستقلا (17).

وإذا بدأنا من الحرب العالمية الثانية فصاعدا فسوف نجد أن البنائية الوظيفية كانت قد تلقت سهام نقد متتالية، ومن ثم كان عليها أن تطور نفسها وتحدد معالمها من جديد، وقدر لها بعض ذلك على يد بعض أنصارها من أمثال بارسونز T.Parsons وروبرت ميرتون، وماريون ليفى وغيرهم. وتشهد كتابات «بارسونز» إن نموذجه يشبه النموذج المستخدم في الفسيولوجيا باستثناء ما قدمه حول الإطار المرجعى للفاعل Actor والموقف Situation.

وأما «روبرت ميرتون» فقد ادخل عددا من المفهومات الأساسية إلى الاتجاه البنائي الوظيفي، كمفهوم البدائل الوظيفية Functional Alternatives والوظائف الكامنة Latent والواضحة Manifest، وإذا كان «بارسونز» قد اعتبر مفهوم «التوازن» مفهوما محوريا، فإن ماريون ليفي «أعاد صوغ مفهوم الوظيفة المعوقة dysfunction والوظيفة الميسرة» وذلك كإسهام منه لإكساب معنى مفهوم الوظيفة ومشتقاته قدرا من الحياد [18].

والخلاصة أن الاتجاه البنائي الوظيفي، منذ التلميح إليه على يد روبرتسون ووضع حجر أساسه على يد «دوركايم» وترميمه وتحسينه على يد «بارسونز» «وميرتون» وآخرين ظل مرتبطا بالعلم الطبيعي خاصة علوم الحياة والكيمياء والميكانيكا. كما أن مفهوماته كانت تلقح بعضها وتخصبها، فبدأت محددة بالبناء والوظيفة، لتكثر وتتعدد مشتقات كل منهما. ولقد انصب التركيز على الجوانب الثابتة من النسق، اكثر من الأبعاد الدينامية المتغيرة، وكانت الأبعاد الثقافية للنسق اكثر استخداما في التفسير من غيرها من مكونات النسق الأخرى.

هذه هي أهم ملامح تطور الاتجاهات البدائية الوظيفية، والتي يستنتج منها أنها اتجاهات كلية، تنظر للبناء الإجتماعي ككل مترابط ومتفاعل تتبادل مكوناته الاعتماد والتأثير والتأثر. وهي تحاكي العلم الطبيعي مستفيدة من مفهوماته كالمورفولوجيا-البناء-والفسيولوجيا-الوظائف. وهذه المفهومات، كما سبقت الإشارة هي التي وسم بها رواد هذا الاتجاه منطوقه. وفي النهاية تدور معظم محاور هذه الإتجاهات كما يشير واحد من أنصارها،

وهو «ماريون ليفي» حول أسئلة ثلاث رئيسية هي: [19]

الأول: ما هي الأنماط التي يمكن الكشف عنها وإقرار وجودها عند دراسة ظاهرة معينة؟

ا لثاني: ما هي الظروف والمصاحبات التي يمكن أن تنتج عن التفاعل بين هذه الأنماط ؟

الثالث: ما هي الوظائف-النتائج-التي تدلل على وجود هذه الأنماط وتبرهن على تفاعلها، على اعتبار أن وظيفة العضو الإجتماعي دليل على وجوده، كما أن هذا العضو أو الجزء باق ما بقيت وظيفته؟

وتوضح لنا هذه الاتجاهات أن أولها يعني بالبناء ويركز عليه وعلى مكوناته. في حين يهتم الثاني بالوظائف الإجتماعية. وأما الثالث والأخير فيركز على العلاقات المتبادلة بين البناء والوظيفة.

أهم التباينات داخل الاتجاهات البنائية الوظيفية:

يذهب بعض أنصار الاتجاه البنائي الوظيفي إلى أنه يحوى بداخله اتجاهات فرعية إذا كانت تتفق في النظرة العامة للإنسان والمجتمع على نحو ما سوف نبين فيما بعد، فهي تتباين في نقاط التركيز ومحاور البدء في التحليل، وفي هذا ميز كانسان F.M.Cancian بين ثلاثة اتجاهات فرعية هي:[20]

الأول: ويوصف بالنموذج العام أو غير المحدد الذي يهتم بالتحليلات السوسيولوجية العامة للنسق الاجتماعي. وهو اتجاه يقوم في جوهره على دعوى نظرية مؤداها: أن السمات الإجتماعية Social Traits القائمة في أي نسق اجتماعي في أي وقت من الأوقات بمثابة وحدات مترابطة معا، بطريقة متسقة، ولها علاقات منظمة ومرئية، يمكن الكشف عنها من خلال الوقائع الاجتماعية والنظم الاجتماعية. ولعل هذا الاتجاه هو الذي حدا بكنجزلي دافيز K.Davis أحد أنصار البنائية الوظيفية إلى القول بأن مثل هذا التوجه البنائي الوظيفي، لا يعدو أن يكون بدعة لأنه لا يقدم شيئا متميزا عن مهمة التحليل السوسيولوجي في علم الاجتماع بصفة عامة.

الثاني: وهو نموذج يبدو أنه اكثر شيوعا بين أنصار الاتجاهات الوظيفية و يوسم بالاتجاه التقليدي. وهو يقوم على قضية نظرية أساسية مفادها: أن معظم الأنماط الاجتماعية وجدت لتحافظ على تكامل النسق وتوازنه، بمعنى أن كل جزء في البناء ما وجد إلا ليؤدي وظيفة تحافظ على بقاء هذا البناء واستمراره وتوازنه. وهذه القضية في جوهرها تعني بأمرين أساسيين: (أ) أن النمط الإجتماعي يمكن تفسيره عن طريق نتائجه أو مصاحباته أو آثاره داخل البناء. (ب) وأن هذه النتائج أو المصاحبات ضرورية لازمة لتحقيق النسق لوظائفه الاجتماعية الأساسية.

الثالث: ويشير الاتجاه الفرعي الثالث إلى ما يسمى بالوظيفية الشكلية أو الصورية Formal Functionalism لأنه لا ينطلق بالضرورة من رؤية نظرية أو من توجه نظري معين، ويكاد يشبه الاتجاه الإمبريقي الذي يعني بإجراءات جمع المعطيات الواقعية وتصنيفها وتبويبها. ويفصح استخدام هذا الاتجاه عن نفسه من خلال الدراسات التي قام بها كليد كلوكهون K.Kluckhon، خاصة في دراساته حول السحر لدى قبائل النافاجو.

وثمة محاولة تصنيفية أخرى للإتجاهات البنائية الوظيفية قام بها الباحثان الإنجليزيان دافيد ريدل، D.Redel ومرجريت كولسون M.Colson)21) حيث ميزا بين ثلاثة اتجاهات فرعية هي على التوالي:

البنائية الوظيفية: وهي تمثل اتجاها يذهب إلى أن غاية المجتمع هي الحفاظ على النظام الاجتماعي، وتأكيد ثباته النسبي واستمراريته و بالمثل يكون هدف كل مكون من مكونات البناء، وكذلك الطريقة التي ترتب وتنظم بها هذه المكونات، هو تحقيق النظام والتوازن الاجتماعيين. ولعل من أبرز من تولوا تفسير هذا الاتجاه وتوظيفه رادكليف براون.

وأما الاتجاه الثاني فيوسم غالبا بالوظيفية البيولوجية Biological Functionalism وهو يحاول تخصيص غرض وجود المجتمع وغايته من خلال إشباع حاجات بيولوجية بعينها للكائنات البشرية. وقد تشيع لهذا التوجه برونسلاو مالينوفسكي.

وأخيرا يأتي الاتجاه الملقب بالوظيفية المعيارية Normative Functionalism، وينهض على فكرة مفادها أن الحفاظ على التوازن الإجتماعي يمكن إنجازه وتحقيقه عن طريق وجود قيم ومعايير عامة ومشتركة بين الغالبية العظمى من المشاركين داخل المجتمع. و يكاد يكون تالكوت بارسونز T.Parsons من أبرز المتشيعين له.

وهناك نقاط اختلاف أخريات تكشف عنها المحاولات التحليلية للاتجاهات السابقة لا تقف عند حد التباعد بين اتجاه فرعي وآخر، بل توجد في الاتجاه الفرعي الواحد، بين باحث وآخر، ولعل التحليل التاريخي لبعض مسارات أفكار هذه الاتجاهات يكشف عن هذا المعنى المذكور: (22)

1- اهتم جورج هومانز G.Homans في عام 1935 بفحص أعمال كل من راد كليف براون، ومالينوفسكي من رواد الفكر الوظيفي، واستنتج من تحليله أن «براون» كان أقرب إلى دوركايم من «مالينوفسكي»حيث اعتبر الأول الكل الاجتماعي هو المستوى الأساسي الذي على الباحث أن يبدأ به تحليله للظاهرات الاجتماعية، في حين أن «مالينوفسكي» كان اكثر اهتماما بالجزء الاجتماعي، و بالعضو الفرد، باعتباره المرتكز الأساسي للدراسة والتحليل.

2- اكتسب التمييز السابق بين المستويات التحليلية مقدارا آخر من الدعم على يد «كليد كلوكهون» وذلك عام 1944 عندما أوضح أن ثمة لغتين في الوظيفية، لغة التكيف adjustment التي تعني التركيز على الكيفيات التي تتواءم بها البناءات الاجتماعية مع بيئاتها الكلية. واللغة الثانية هي لغة التوافق والانتظام التي تعني تناغم البناءات وتوازنها في «جشطالت» اجتماعي واحد.

3- أشار ميلفورد سبيرو M.Spiro في عام 1953 إلى أن ثمة ما لا يقل عن اثنى عشر اشتقاقا وتباينا داخل الوظيفية منها ثنائيات: الجزء-الكل، الشكل-المضمون.

4- في واحدة من مقالات هاري بريد ماير H.Bredemeier وسمها «بمنهجية الاتجاه الوظيفي» نشرت عام 1955 أوضح أن مرتكز الاتجاه البنائي الوظيفي هو دراسة الظاهرة الإجتماعية من خلال علاقتها ببعض الأنساق الاجتماعية. وأنصار هذا الاتجاه في توجههم نحو تحقيق هذه الدراسة يسلكون أحد مسلكين: يحاول الأول توضيح الدور الذي يلعبه نمط سلوكي معين في الحفاظ على النسق الأكبر الذي يحتوي هذا النمط. ويتمثل الثاني في التركيز على قدرات وإمكانات نمط سلوكي معين على الاستمرار، وذلك بدراسة ظاهرة معينة من خلال أسبابها في العقل.

5- يذهب «ألفن جولدنار» إلى القول بأنه برغم تركيز «بارسونز» و «ميرتون» على مفهومات النسق بوصفها مفهومات محورية في بناء التنظير الوظيفي، فإن كلا منهما يغاير الآخر في نقطة الانطلاق، ففي الوقت الذي يركز فيه «ميرتون»على بعض وحدات السلوك، بقصد معرفة استمراريتها وتغيرها ومصاحباتها على البناء الاجتماعي، فإن «بارسونز» يركز مباشرة على السياق البنائي بوصفه نسقا. وافتراض بارسونز هنا يفيد أنك عندما تهم بدراسة أي نمط محدد أو أي جزء اجتماعي، فهذا يقتضيك أولا أن تطل على الكل بوصفه نقطة البدء في بحث أي نمط خاص وتحليله. وإذا كانت النقاط السابقة قد أوضحت ما هنالك من تباينات فما الذي يميز البنائية الوظيفية كاتجاه نظري في علم الاجتماع، وما هي النقاط التي تلتقي عندها هذه الاتجاهات الفرعية؟ أتصور أن الرد على هذا السؤال غير ممكن بدون الوقوف على القضايا الأساسية لهذا الاتجاه.

قضايا البنائية الوظيفية وتصوراتها:

ا-تصور المجتمع: تتصور البنائية الوظيفية في معظم اتجاهاتها الفرعية المجتمع على أنه نسق من الأفعال المحددة المنظمة، ويتألف هذا النسق من مجموعة من المتغيرات المترابطة بنائيا والمتساندة وظيفيا. وترى أن للمجتمع طبيعة ترنسند نتالية أي سامية ومتعالية تتجاوز وتعلو على كل مكوناته بما فيها إرادة الإنسان، وتتحدد شروط هذا التجاوز والتعالي من خلال قواعد الضبط والتنظيم الاجتماعيين، التي تلزم الأشخاص بالانصياع لها والالتزام بها لأن أي انحراف عنها يهدد أساسيات بناء المجتمع، الذي تعد المحافظة عليه وصيانته وتدعيم استمراريته غاية في ذاتها. [23] بل يضاف إلى هذا ما حاول «بارسونز» أن يؤكده في المؤتمر الدولي الرابع لعلم الاجتماع حين ذهب إلى أن ثمة نظاما واحدا للمجتمعات المعاصرة، فهي تميل جميعها نحو الوحدة والتكامل على أساس تكامل القيمة، وهذه فكرة روج لها كثيرون من أمثال «ريمون آرون» كما سبقت الإشارة في مقدمة الفصل الراهن وهدفها في النهاية تحقيق دمج للمجتمعات الصناعية المتغايرة أيديولوجيا مع المجتمع الرأسمالي، وذلك لضمان تبعية المجتمعات النامية، وهز أيديولوجية المجتمعات الأخرى.

وأما عن قضايا التغير الاجتماعي في البنائية الوظيفية فهي تحتل موضعا مشكلا في البناء المعرفي للنظرية، ففي الوقت الذي تركز فيه النظرية على مسائل «الاشتراك» و«التوازن»، وتغفل قضايا الصراع والتغير، نجد بعض تلاميذها ينكرون ذلك. وفي هذا الاتجاه يذهب «اتزيوني وزوجته» إلى أن النموذج الذي قدمه «بارسونز» لدراسة التغير يعد اختبارا لمقدرة النظرية على استيعاب هذا الموضوع. فهو يقوم على فكرة التباين Differentiation، فأي وحدة اجتماعية S.Unit لها بناء بسيط تنجز من خلاله الوظائف الملقاة عليها والمطلوبة منها، غير أن التباين المعتمد على التخصص وتقسيم العمل والأدوار، و بروز ضرورات جديدة، يجلب وحدات تقابل هذه الوظائف التي لم تكن قائمة من قبل، فيحدث التباين الذي يسعى إلى التكامل الوظيفي. وهذا يعني إعادة تشكيل مكونات البناء من جديد، وإعادة توازنها من جديد [24] على أن «ألفن جولد نار» يذهب إلى عكس ما حاول أن يستنتجه «اتزيوني» مستندا إلى إشارة «بارسونز» الذاهبة إلى أن نظرية عامة لعمليات تغير النسق الاجتماعي ليست ممكنة في ظل حالة المعرفة الراهنة. [25]

2- مسألة التوازن الاجتماعي: توسم البنائية الوظيفية أحيانا بأنها اتجاهات للتوازن، تراه واقعا وهدفا يساعد المجتمع على أداء وظائفه وبقائه واستمراره، ويتحقق بالتناغم بين مكونات البناء والتكامل بين الوظائف الأساسية، يحيطها جميعا شريط ذهبي من الاشتراك في القيم والأفكار التي يرسمها المجتمع لأفراده وجماعاته فلا يملكون حق الخروج عليها، وان خرجوا وقعوا تحت وطأة جزاءات الضبط الرسمي، وان وقع عليهم هذا عدوا منحرفين خارجين على مسيرة المجتمع.

وإذا أردنا وبإيجاز تتبع خيوط «مقولة التوازن» فسوف نجد أن «بارينو» أحد منظري البنائية الوظيفية رأي المجتمع نسقا متوزانا، يتحقق توازنه بقواه العاملة على تدعيم الصورة-الشكل-التي حققها المجتمع واستقر عليها دون تغيرات جوهرية. و يتميز التوزان ها هنا بديناميته، فحالما يتعرض النسق لضغط تمارسه قوى خارجية، تتأهب القوى الداخلية للدفع بالنسق إلى إعادة توازنه، وأما عن القوى الداخلية التي يعنيها «باريتو» فهي تتبلور في عاطفة الثورة على أي شيء وكل شيء يعوق التوازن الداخلي، ومعنى هذا أن العواطف وغيرها من المتغيرات السيكولوجية، لا السوسيولوجية هي التي تحافظ على التوازن وتعيده. وخلاصة كل هذه المسألة في تحليل «باريتو» أن التوازن قاعدة استثناؤها التغير، وأنه يفسر بعوامل ذاتية غير موضوعية، وغير اجتماعية [26]

وأما كبيرهم «بارسونز» الذي وضع «مقولة التوازن» في مكانة محورية فيلاحظ أنه حاول توضيح تصوره للتوازن عبر مفهومات أقل يسرا ووضوحا في تناولها وتحديدها من «مفهوم التوازن» نفسه. فهو يربطه تارة بتناغم مكونات النسق أو تساوقها سويا، و يعالجه في أخرى من خلال التكامل integration ويلحقه في ثالثة بالنظام العام Order، وهي كلها تعكس اهتماما بالجوانب الثوابت في النسق، وغض الطرف عن الجوانب المتغيرة. ففي كتاب «بارسونز» الذي أعده بالاشتراك مع إدوارد شلز. E.Shills «نحو نظرية عامة للفعل الاجتماعي» أشارا إلى أن الخاصية العامة والأساسية لكل نسق اجتماعي تتركز في تساند مكوناته، ذلك التساند الذي يتألف من علاقات محددة قائمة بين هذه المكونات كي تناهض عشوائية القابلية للتغاير Variability. و بعبارة أخرى فإن التساند هو الانتظام في العلاقات بين المكونات الداخلية، الذي يحوى ميلا نحو الصيانة الذاتية Self-maintenance التي يعبر عنها تعبيرا عاما «بمفهوم التوازن» [27]. ويمكن أن تتضح الصورة أكثر من خلال تصور «بارسونز» للنسق الذي يراه في حالة تعادل صاف net balance لمجموعة المصاحبات، مما يشير من ناحية أخرى إلى عمومية التوازن، التي يتضاءل أمامها الصراع الاجتماعي. فقد وضع عبارته الذاهبة إلى أن النظام هو أول الضرورات الوظيفية للنسق [28].

و بإيجاز شديد تتحدد معالم مقولة التوازن في هذه الاتجاهات النظرية التي نذكرها فيما يلي:

- ا- إن المفهوم سواء لدى «باريتو» أو «بارسونز» أو غيرهما مفهوم مغلف بالغموض فالأول حدده بالقوة التي تحققه، والثاني خلطه بمفهومات أخرى، لا تقل غموضا عنه، حتى بدت الأمور مختلطة لديه. وحول هذه النقطة يشير دنكان ميشيل D.Mitchell إلى أن «بارسونز» لم يستطع التفرقة بدقة بين جانبين من جوانب التوزان يتعلق الأول بافتراض أن توازن النسق ليس إلا وسيلة لتوضيح بعض المتغيرات المستقلة والتابعة داخل النسق.. ويتعلق الثاني بافتراض وجود التوازن كحالة واقعية. بعبارة أخرى لم يستطع التمييز بين افتراض تكتيكي، وبين وقائع الأمور [29].

- 2- ترى الوظيفية في التحليل العام، أن التوازن قاعدة، استثناؤها التغير. ودليل ذلك اعتبار «بارسونز» للنظام أولى الضرورات الوظيفية التي يستند عليها النسق. بل إن بعضا من الوظيفيين المحدثين من أمثال ليبست S.Lipset وسملسر N.Smelser عندما ميزوا بين التوازن الثابت والتوازن الدينامي عدوا الأخير حالة غيرسوية للبناء [30] وهذه فكرة موغلة في رفض التغير[31]

3- لا يحوى الفكر الوظيفي-كما سبقت الإشارة-أي تعيين أو تحديد دقيق لشروط التوازن ومستوياته ومعاييره وفي هذه الحالة يذهب هندرسون L.J.Hunderson إلى أن ثمة خطأ وقع فيه الوظيفيون بفكرة غير واضحة وبمسألة بغير معايير[32] ونحو هذا المعنى أشار كنجزلي دافيز A.Davis- الوظيفيين المشهورين-إلى أن وضع «مسألة التوازن» في الفكر البنائي الوظيفي، يعبر عن فكرة مبدئية غير كاملة متروكة لما يسفر عنه حصاد الدراسات والبحوث في هذا الصدد [33].

بعض القواعد المنهجية العامة [34]

1-ترى الوظيفية في العلم الطبيعي، خاصة علم الحياة، مثلا أعلى، ويفصح هذا عن نفسه من مفهومات النظرية-البناء والوظيفة-ومماثلتها للمجتمع بالكائن العضوي، ومسائل التوازن والتغير وما إليها.

2- تركز الوظيفية، باتجاهاتها الفرعية على تفسير وظيفي متعدد المتغيرات، فهي تفسر أي شيء في النسق الاجتماعي بكل شيء في هذا النسق. حتى يخيل للمرء أنها تقف عند حد التصنيف والتحليل، ولا تميز إلا ضمنا بين متغيرات مستقلة وأخرى تابعة. والأمر الملفت للنظر أنه رغم كليتها في تصور المجتمع فهي تعود لتحصر نفسها في موضوعات جزئية، وأنساق فرعية تبدو منعزلة. ولهذا يسهل على المحلل لها أن يجد انفصالا واضحا بين مفهوماتها وقضاياها، وبين بحوثها ونتائجها الموغلة في التجزيء، فثمة وظائف واضحة وأخرى كامنة، وثالثة معوقة ورابعة ميسرة وما إلى ذلك من تفتيت للكل المزعوم.

3- ومع أن تصوراتها ومفهوماتها بنائية وكلية فهي تبدأ بالثقافة وتعدها الوعاء الأساسي للتفسير مرورا منها إلى الشخصية الفردية ثم التنظيم الاجتماعي.